صدى مقتل الحسين

في التاريخ الإسلامي والأدب العربي

للأســـتاذ ضياء الدخيلي

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

ولما كان يوم عاشوراء من سنة ٥١٦ هـ جلس الخليفة الآمر بأحكام الله على باب (الباذهنج) في القصر وكان ذلك بعد قتل الأفضل وعود الأسمطة إلى القصر — على كرسي جريد بغير غدة متلثما هو وجميع حاشيته، فسلم عليه الوزير المأمون وجميع الأمراء الكبار والصغار بالقرامز (ويقول البعض هي على ما يظهر ثياب خاصة ملونة بالقرمز) وإذن للقاضي والداعي والإشراف والأمراء بالسلام عليه وهم بغير مناديل ملثمون حفاة، وعبيء السماط في غير موضعه المعتاد وجميع ماعليه خبز الشعير والمواصر على ماكان في الأيام الأفضلية وتقدم إلى والي مصر والقاهرة بأن لا يمكنا أحداً من جمع ولا قراءة مصرع الحسين وخرج الرسم المطلق للمتصدرين والقراء والوعاظ والشعراء وغيرهم على ما جرت به عادتهم.

قال وفي ليلة عاشوراء من سنة ٥٢٧ اعتمد الأجل الوزير المأمون على السنة الأفضلية من المضي إلى تربة (تبر) أمير الجيوش وحضور جميع المتصدرين والوعاظ وقراء القرآن والمكث إلى آخر الليل والعودة إلى داره، واعتمد في صبيحة الليلة المذكورة مثل ذلك وجلس الخليفة على الأرض متلثما يرى به الحزن وحضر في شرف بالسلام عليه والجلوس على السماط بما جرت به العادة.

هذا ما كان يحدث من احتفالات في ذكرى مصرع سيدنا الحسين (ع) قبل أن يشاد الضريح الحسيني حيث دفن فيه رأس الإمام الشهيد منقولا من عسقلان. أما بعد ذلك فقد تحدث ابن الطوير عما كان يصنع في عاشوراء فقال: إذا كان اليوم العاشر من المحرم احتجب الخليفة من الناس، فاذا علا النهار ركب قاضي القضاة والشهود وقد غيروا زيهم ليكونوا كما هم عليه اليوم (في عهد الناقل ابن الطوير) ثم صاروا إلى المشهد الحسيني وكان قبل ذلك يعمل في الجامع الأزهر، فاذا جلسوا فيه ومن معهم من قراء الحضرة والمتصدرين في الجوامع جاء الوزير فجلس صدراً والقاضي والداعي على جانبيه والقراء يقرءون نوبة بنوبة وينشد قوم من الشعراء غير شعراء الخليفة شعراً يرثون به أهل البيت عليهم السلام؛ فان كان الوزير رافضاً تغالوا، وإن كان سنياً اقتصدوا.

ولا يزالون كذلك إلى أن تمضي ثلاث ساعات فيستدعون إلى القصر بنقباء الرسائل فيركب الوزير وهو بمنديل صغير إلى داره ويدخل قاضي القضاة والداعي ومن معهما إلى باب الذهب فيجدون الدهاليز قد فرشت مصاطبها بالحصر بدل البسط وينصب في الأماكن الخالية من المصاطب دكك لتلحق بالمصاطب لتفرش، ويجدون صاحب الباب جالساً هناك فيجلس القاضي والداعي إلى جانبه والناس على اختلاف طبقاتهم فيقرأ القراء وينشد المنشدون أيضاً ثم يفرش عليها سماط الحزن وفيه مقدار ألف زبدية من العدس والملوحات والمخللات والأجبان والألبان الساذجة وأعسال النحل والفطير المتغير لونه بالقصد فاذا قرب الظهر وقف صاحب الباب وصاحب المائدة وأدخل الناس للأكل منه فيدخل القاضي والداعي ويجلس صاحب الباب نيابة عن الوزير والمذكوران إلى جانبه وفي الناس من لا يدخل ولا يلزم أحد بذلك فاذا فرغ القوم انفصلوا إلى أماكنهم ركباناً بذلك الزي الذي ظهروا فيه وطاف النواح بالقاهرة ذلك اليوم وأغلق البياعون حوانيتهم إلى جواز العصر فيفتح الناس بعد ذلك ويتصرفون. أما الدولة الأيوبية فقد اتخذت يوم عاشوراء عيداً ومن أيام الأفراح لإرغام آناف الشيعة وإيغاظهم.

هذا هو أثر فاجعة كربلاء في التاريخ الإسلامي.

أما في الأدب العربي فقد أوجدت فيه ناحية قائمة يعلو فيها الصراخ والعويل وتتردد في جوانبها الثورة على الظلم القبيح وامتداح الإباء وشرف النفس والترفع عن دنايا الأمور. كان هذا القسم من الأدب العربي طافحاً بتصوير مآسي كربلاء بخطوط واضحة سوداء واجتهد في أن يبرز كل جانب من جوانبها مؤلماً يهطل بالدموع ويثير الآهات والحسرات خاصة بعد أن كان ترديد فاجعة كربلاء على الجماهير مهنة تدر الربح الوفير كما كان حال النواح والمنشدين في العصر الفاطمي بمصر كما تقدم على ما نقل المقريزي في الخطط وكما هو الشأن اليوم في العراق وإيران والهند وجبل عامل وغيرها من الأصقاع الشيعية، ويدعى هؤلاء (خطباء المنبر الحسيني) ويسمون في اللغة الفارسية (روزه خون) وهي تحريف (روضه خون) أي قارئ الروضه أي روضة الإمام الشهيد يعني قبره الكريم.